المدينة الفاضلة في مرآة الفلسفة الاسلامية

(موقف فلسفي)

• د . نور الدين علواش (المغرب)

ليس من السهل الاعتراف بأن الفلسفة في الغرب الإسلامي ،كانت مرتبطة ارتباطا عميقا بالسياسة المدنية، كما نظر لها الفارابي على الرغم من أن أبا نصر له حضور كبير في كتابات فلاسفة الأندلس، الشاهد على ذلك كتابات ابن باجة وابن طفيل وابن رشد.

فكتابا أهل المدينة الفاضلة وكتاب السياسة المدينة استطاعا أن ينشر ظلالهما على رأي ابن باجة وسياسة ابن رشد[1].

لكن مع ذلك، كان هناك اختلافات في الطروحات السياسية بين كل من ابن باجة وابن رشد والفارابي وابن طفيل وابن خلدون.

يكمن الاختلاف بين الفارابي وابن رشد في أن الأول يرى أن تشييد المدينة الفاضلة يتم من خلال آراء أهلها، إي أنه يوظف السياسة في العلم الإلهي حسب الدكتور محمد عابد الجابري، في حين أن ابن رشد يرى انه ينبغي أن يتم من خلال النظر إلى واقعها السياسي.

أي يحاول تفسير السياسة بخطاب سياسي يعتمد البرهان، ولذلك فإن ابن رشد على عكس الفارابي يركز على البرنامج التعليمي للحفظة/ الحراس كما أنه ينحو بالنقد على المدينة الأندلسية الموجودة في عصره، ومحاولة إرغامها على التحول من الاستبداد إلى الفضيلة إذ نجده يقول عن مدينة الفارابي : " أنها لن تؤول نحو الأفضل بالآراء وحدها".[2]

فالمدينة الفاضلة لن تأسس حسب ابن رشد إلا بالأعمال الصالحة والآراء الحسنة, لأن أهل المدن الإسلامية لا تنقصهم الآراء بقدر ما تنقصهم الأعمال الصالحة.

[1] - Mushin mahdi, alfarabi et Averroès, remarques sur le commentaire Averroès sur la république de Platon in
Multiple Averroès paris, les belles lettres 1978.
نقلا عن عزيز الحدادي ابن رشد واشكالية الفلسفة السياسية في الإسلام ص 71

[2]- ابن رشد الضروري في السياسة م م ص 165

" وبالجملة فتحولها إلى مدينة فاضلة أقرب إلى إن يكون في هذا الزمان بالأعمال الصالحة منه بالآراء الحسنة، وأنت تلمس ذلك في مدننا وبالجملة فلن يصعب على من كملت لديه أجزاء الفلسفة (واطلع) على طرق تحول المدن لا يرى أنها تؤول نحو الأفضل بالآراء وحدها ".[3]

لكن هل كان ابن رشد هو الفيلسوف الذي ليس الوحيد الذي انتقد الآراء السياسية للفارابي؟

لا، هناك العديد من الفلاسفة الذين انتقدوا الفارابي على سبيل المثال ابن رشد وابن طفيل.

فابن طفيل وان لم يخصص كتب سياسة، إلا أنه انتقد الفارابي في كتابه حي بن يقظان :" وأما من وصل ألينا من كتب أبي نصر، فأكثرها في المنطق وما ورد عنها في الفلسفة فهي كثيرة الشكوك ثم صرح في السياسة المدينة بأنها منحلة (النفوس الشريرة) وسائرة إلى العدم وانه لإبقاء إلا للنفوس الفاضلة الكاملة ثم وصف في شرح كتاب الأخلاق شيئا من أمر السعادة الإنسانية وأنها إنما تكون من هذه الحياة التي في هذه الدار"[4]

الملاحظ أن ابن طفيل وإن كان يظهر استجابة بأستاذه ابن باجة فإننا نجده بالمقابل ينتقد فلسفة الفارابي مركزا على مسألة تشكيكه في حشر الأجساد بعد موتها. ومعنى ذلك أن السياسة المدينة عند الفارابي مرتبطة في رأي ابن طفيل ميتافيزيقا واجب الوجود إذ أن الفارابي لا يتحدث عن المدينة باعتبارها مجالا مشتركا يقوم الفلاسفة أو الحكماء بتدبيره، بل أنه يتحدث عن مدينة فلسفية من المستحيل تحقيقها في عالم الكون والفساد. أما ابن باجة فهو الآخر ينتقد الفارابي ويناقضه حتى في توظيف بعض المصطلحات مثل النابت عنده هو المتوحد الخير لا كما يعتقد الفارابي فالجماعة هي

[3]-ابن رشد ن م ص 164-165
[4]- ابن طفيل حي بن يقظان تحقيق أحمد أمين مصر دار المعارف 1952ص62

الشوك والنائب هو الوردة التي تعيش بينهم كما خالف الفارابي في تقسيم المدن المضادة للفضيلة فهو يقسمها على أساس قوى النفس و الطبيعة.[5]

وإن كان أبو الصائغ ابن باجة قد مارس السلطة كوزير,لكن وجد نفسه محاصرا بآراء أهل المدينة الجاهلة .

مما جعله في رسائله الإلهية يذهب إلى حدود رفض المدينة الأندلسية باعتبارها مدينة جاهلة تكثر فيها النوابت، والقضاة والأطباء، لأنه من خواص المدينة الفاضلة عند ابن باجة أن لا يكون فيها لا طبيب ولا قاض.[6]

حالة المعاناة التي عاشها في الأندلس دفعته إلى الاعتزال والتوحد:"

وإذا اتفق ونشأ في هذه المدن فيلسوف حقيقي كان بمنزلة إنسان وقع بين وحوش ضارية فلا هو قادر على أن يشاركها فسادها، ولا هو يأمن على نفسه منها، ولذلك بأنه (يفضل) التوحد والعيش عيشة المنعزل فيذهب عنه الكمال الأسمى الذي يحصل له في هذه المدينة على ما وصفنا في هذا القول"[7]

لذلك فإن ابن باجة اتجاه من سياسة المدينة الفاضلة إلى سياسة المتوحد، هكذا نجده في كتاب تدبير المتوحد يدعو إلى إنشاء هذه السياسة ويدافع عنها بحماس كبير.

فإن كان مشروع الفارابي قد فشل في تأسيس مدينة فاضلة يعزى إلى تغليبه النظر الفلسفي على المشروع السياسي. فإن ابن باجة هذا الآخر اختار طريق الفلاسفة بل أكثر من ذلك استطاع أن يوجه مشروعه الفلسفي السياسي إلى تدبير شؤون الفرد أو المتوحد بلغته.

[5]- عزيز الحدادي ،ابن رشد وتأسيس الفلسفة السياسية الإسلامية ص 72
[6]- ابن باجة، الرسائل الإلهية، تحقيق ماجد فخري، بيروت ،دار النهار 1968ص43
[7]- ابن رشد، الضروري في السياسة ص 141

إن ابن باجة يرغب في تأسيس مشروع سياسي للمتوحد, لأن الخير الأفضل والكمال الأقصى عنده لا ينال بالمدينة كما رأينا , وإنما ينال بتربية النفس على التوحد إذ ينبغي على الفيلسوف أن يربي نفسه على الغربة حتى تصير له وطنا بل يجب عليه أن يبني في باطن مدينته الفاضلة مادام أنها من المستحيل أن توجد على أرض جاهلة"[8].

وفي جانب آخر، يحسن القول بأن ابن باجه والفارابي دافعا عن سياسة واحدة بسيطة، على عكس ابن رشد الذي دافع عن سياسة مركبة من فضيلة وكرامة وحرية وتغلب.

وهذا الأمر ربما يكون نابعا عن تأثر ابن رشد بابن سينا, إذ نجده في كتابه معاني ريطوريقا " السياسة الموجودة في بلادنا مركبة من سياسة التغلب مع سياسة القلة مع الكرامة، وبقية من السياسة الجماعية " [9]

الجديد بالذكر أن كذلك ابن خلدون ,انتقد الفارابي في مسألة السياسة المدنية ، " سياسة المدينة الفاضلة هي سياسة نادرة أو بعيدة الوقوع بسبب عدم تطبيقها على الواقع المجتمعي الإسلامي حتى عصره لأنها تدور على ما يجب (أن يكون عليه) كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأسا و يسمون المجتمع الذي يصل فيه ما يسعى من ذلك بالمدينة الفاضلة (مدينة الفارابي) والقوانين مراعاة بذلك بالسياسة المدينة وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها الاجتماع (بالمصالح العامة) فإن هذا غير ذلك، وهذه المدينة الفاضلة عنهم نادرة أو بعيدة الوقوع.

وإنما يتكلمون عنها في جهة الفرض والتقدير" أن الملامح التي يرسمها المعلم II للمدينة الفاضلة عامة جدا، وهي أقرب إلى النظرية الشاملة لمبادئ تأسير المجتمع الفاضل منها إلى المشروع السياسي المتبلور.

[8] علي اوملیل ،السلطة الثقافية والسلطة السياسية ص 183
[9]- علي أو مليل ،السلطة الثقافية والسلطة السياسية ص 183

وهـذه الصـورة تنـدرج ضـمن نسـق فلسـفي متكامـل يعيطهـا مشـروعيتها الميتافيزيقيـة، وتبقـى ملازمـة للأسس الميتافيزيقية التي يقوم عليها هذا البناء.